الصورة التربوية وسؤال القيم
كتاب "منار اللغة العربية" نموذجا

الدكتورة حكيمة مساعد
باحثة في الأدب والنقد
المغرب

ملخص

تسعى المنظومة التربوية المغربية إلى تجديد مقارباتها التعليمية، من خلال تشجيع الإبداع في التدريس سواء من حيث المعارف والمضامين، أو من حيث التجديد في الوسائل التعليمية التعلمية، ومن بين هذه الوسائل نذكر الصورة التربوية التي لا يمكن للمدرس الاستغناء عنها، فهي وسيلة تقرب المفاهيم، وتساعد على الشرح والتوضيح.

وتهدف دراستنا إلى مقاربة موضوع الصورة التربوية وأثرها في العملية التعليمية، وذلك من خلال رصد طبيعة ووظيفة الصور الموجودة في كتاب " منار اللغة العربية " للسنة الأولى علوم، قصد معرفة علاقتها بواقع القيم الإنسانية التي يمكن للأدب والشعر أن يغرسها في نفس المتعلم.

الكلمات المفتاح: الصورة التربوية – العملية التعليمية – المتعلم – القيم –كتاب " منار اللغة العربية " – الشعر.

Abstract:

The educational system seeks to renew its educational approaches by encouraging creativity in teaching whether in terms of knowledge and content, or in terms of innovation in teaching learning - methods. Among these methods we can state the educational image that a teacher cannot move on without, since it is a mean that makes the concepts closer and helps in explanation and clarification.

Our study aims to approach the subject of the educational image and its impact on the educational process through following the nature and the function of the images present in the book "manar of the Arabic language" of the first baccalaureat science. In order to know their relationship to the reality of the human values that literature and poetry can instill in the learner.

Key words: educational imae – learning pocess – learner – values - book "manar of the Arabic language" - poetry.

تأطير عام

تؤدي الصورة التربوية دورا فاعلا في المنظومة التربوية، بوصفها أكثر الوسائط التعليمية أهمية، وأقدرها على تقديم المادة الدراسية بأيسر السبل، وهي وسيلة فعالة من وسائل الملاحظة والاختبار والفحص في مجالات كثيرة، إذ تعد الوسيلة الثالثة من وسائل التعليم عموما، بعد اللفظ والرمز أو الرقم.

ومقارنة بالسنوات السابقة حقق الكتاب المدرسي المغربي – اليوم – تطورا لافتا للانتباه على مستوى توظيف الصور، وكذا استثمارها تربويا وديداكتيكيا، فالمتعلم يرتاح إلى الصورة المرئية أكثر مما يرتاح إلى درس جاف، يستخدم فيه المدرس اللغة البيانية من بداية الحصة إلى نهايتها.

ويؤكد كثير من المحللين التربويين أن نسبة ٪ 80 إلى ٪90 من خبرات الفرد، يحصل عليها عن طريق حاسة البصر، لأنه لا يتعلم إلا بالمحسوس والملموس والمشخص حسب التصور النفسي والمعرفي لجان بياجيه (Jean piaget)، كما أن ثمة مبدأ سيكولوجي يقول: إن الفرد يدرك الأشياء التي يراها إدراكا أفضل وأوضح مما لو قرأ عنها أو سمع شخصا يتحدث عنها، فالصورة وسيلة مهمة في المجال التربوي، فهي كفيلة بتطوير كافة عناصر العملية التعليمية التعلمية، وجعلها أكثر فاعلية وكفاية.

والمتأمل للميثاق الوطني للتربية والتكوين باعتباره وثيقة جامعة مانعة، لم تترك أمرا يتعلق بالتعليم إلا وتطرقت إليه وعملت على معالجته وإصلاحه، ومن هذه الأمور سؤال القيم التي على المتعلم أن يتمتع بها كالقيم الروحية والثقافية والاجتماعية...

وسوف نحاول في دراستنا أن نرصد طبيعة ووظيفة الصور الموجودة في كتاب " منار اللغة العربية" للسنة الأولى ثانوي، وذلك لمعرفة علاقتها بواقع القيم الإنسانية التي يمكن للأدب والشعر أن يغرسها في نفس المتعلم، فما هي وظائف الصورة التربوية وأنواعها؟ وإلى أي حد يمكن للصورة أن تساهم في تحقيق وتطوير القيم الإنسانية، في أفق جعل المتعلم يكتسب مجموعة من الآليات القادرة على جعله إنسانا عاشقا لقيم الجمال والمحبة والحداثة...؟

أولا– الصورة التربوية: أنواعها ووظائفها.

تقوم الصورة التربوية بدور هام في تبسيط الدرس، وتسهيله، وشرحه وتفسيره بطريقة ديداكتيكية ميسرة راسخة في العقل أو الذهن، فهي تؤدي ما تؤديه الوسائل الديداكتيكية من وظائف بيداغوجية وتعليمية ونفسية، واجتماعية وتثقيفية وإعلامية...

وبهذا المعني، فالصورة التربوية هادفة ومفيدة تستخدم في مجال التربية والتعليم، وتتحول إلى صورة ديداكتيكية أو ما يسمى بالصورة التعليمية التعلمية، فهي وسيلة توضيحية، وأداة بيداغوجية، تساعد المتعلم والمدرس معا على الفهم والإفهام والتوضيح، أي توضيح ما صعب وغمض من الدرس، وشرح تفاصيله المعقدة بشكل محسوس ومشخص.

وتعتبر الصورة التربوية نسقا تواصليا نتج عن مجموعة من العلامات الدالة، لأن أول ما يلفت انتباه المتعلم في الخطاب اللغوي التربوي هو تأهيل المتعلم نفسيا لاستقبال وتقبل الخطاب اللغوي، وبالتالي جلب اهتمامه نحو النشاط المعرفي التعليمي، وهكذا يمكن القول: " إن الصورة تعد ملفوظا بصريا مركبا ينتج دلالته استنادا إلى التفاعل القائم بين مستويين مختلفين في الطبيعة، لكنهما متكاملان في الوجود، كما أن العلامة الأيقونية تشير إلى تركيب لمجموعة من العناصر المؤدية إلى إنتاج دلالة ما..."[1]

وعلاوة على هذا، ترتبط الصورة التربوية ارتباطا وثيقا بمجال التربية الفنية، حيث نسعى من خلالها إلى تقريب المتعلم من الفنون الجميلة، عن طريق توضيح الرؤية عنده بتعريفات مبسطة للصورة خاصة وللفن عامة وكيفية تذوقه والتعامل معه، وفي هذا السياق يقول الأستاذ بسيوني: " تعتبر الصورة وسيلة عن طريقها يتدرب التلميذ على صقل رؤيته وإدراك الأشياء والعلاقات على سائر أنواعها...فالصورة هي مجال البحث الذي يجريه الناشئ ليدرك عن طريقه كنه الأشياء، ويُلم بالأسس الجمالية التي تستند إليها"[2]. ويقول أيضا: " إن تربية النشء على إدراك المعاني المتضمنة في الفن هي التربية التي ترفع من مستوى فهم الحياة بما فيها من غرابة وسعة وسحر"[3].

ومن هذا يتبين أن إدراك المتعلم للأسس الجمالية للصورة، لا يتأتى إلا بممارسة دائمة للقراءة الفنية للأشياء واكتشاف أبعادها ووظائفها، الشيء الذي يساعده على الانتقال بالقيم التذوقية المدروسة، إلى مواقف الحياة.

وقد استثمرت الصورة التربوية في مجال التربية والتعليم، وذلك نظرا لأهميتها التواصلية والثقافية، وكذا قدرتها على التأثير والإقناع، وهذا ما أدركته المنظومة التربوية المغربية، فوضعت صورا في كتب المراحل التعليمية الخاصة بالتعليم الثانوي التأهيلي.

وبما أن الصورة التربوية ترتبط بالثقافة، والثقافات تتعدد وتتنوع، فحتما الصور تتنوع بتنوع الموضوعات أيضا، ويتضمن كتاب " منار اللغة العربية" للسنة الأولى علوم أنواعا من الصور التربوية التي يمكن حصرها في مايلي:

1- الصورة التشكيلية: ينبني هذا النوع من الصور على الأشكال والخطوط والألوان والعلاقات، ويستعين كتاب " منار اللغة العربية" بالصورة التشكيلية لنقل مجموعة من الأفكار والمعارف والخبرات التعليمية للمتعلم، وهي كذلك وسيلة فنية للشرح والتفسير، والفهم والإفهام.

وفي كتاب " منار اللغة العربية" مجموعة من الصورة التشكيلية التي وظفت توظيفا دقيقا منظما، ففي الصفحة الخامسة والسبعين نجد صورة تشكيلية تعبر عن ظاهرة الهجرة:

وهي صورة تشكيلية تتكون من مجموعة من الأيدي، وكرة أرضية، وكذا ورقة بيضاء كتب عليها " عقد"، وتوضح هذه الصورة ظاهرة الهجرة الخارجية إلى مختلف بقاع العالم عامة، وإلى بلدان أوربا وأمريكا خاصة " فمنذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ابتدأت هجرة العمالة العربية في سوريا ولبنان وفلسطين إلى الأمريكيتين وبعض البلدان الأوربية، واتسعت هذه الهجرة خلال النصف الأول من القرن الحالي، حتى أصبح المنحدرون من أصل عربي يكوّنون نسبة مهمة من سكان البلدان الأجنبية."[4]

2- الصورة التوجيهية أو الإعلانية: تحمل الصورة التوجيهية في ثناياها رسائل تحسيسية وإخبارية تنويرية، ويقصد بها توجيه التلميذ ونصحه إلى ما يخدم مصلحته وذاته من جهة، وما يخدم وطنه وأمته من جهة ثانية، فهي تهدف إلى غرس القيم النّبيلة في نفوس التلاميذ، وذلك للتشبث بها في حياتهم وسلوكهم، ونجد هذا النوع من الصور في الصفحة الثالثة والثلاثين من كتاب "منار اللغة العربية":

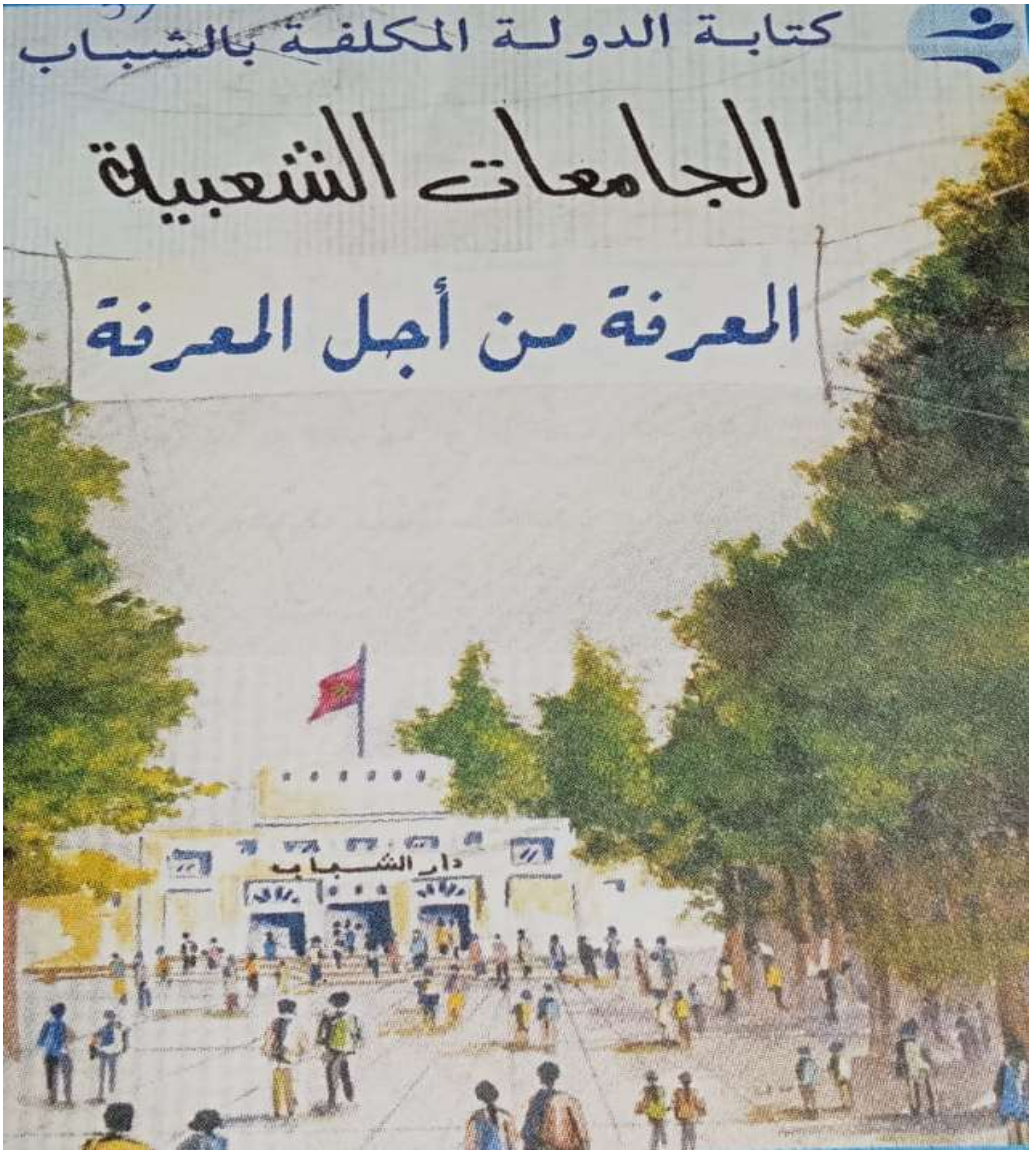

وهي صورة تشكيلية ذات هدف تحسيسي بأهمية المعرفة من أجل المعرفة لا غير، وذلك قصد ترسيخ المعرفة مدى الحياة دون قيد أو شرط، وقد تبنت "الجامعات الشعبية" هذا الشعار، من أجل غايات إنسانية راقية، تهدف إلى دعم دمقرطة الفضاء الثقافي

واكتشاف المواهب وتقوية المدارك، كما ركزت في بداياتها على محور " تعليم البالغين" وتمكينهم من القراءة والكتابة، ودعمهم للانفتاح على المحيط الاجتماعي والثقافي عبر إنشاء فضاء مفتوح على الحوار الديموقراطي وعلى المعرفة والحياة.

3- الصورة الفوتوغرافية: هي صورة تختزل الواقع الحقيقي وتختصره، تتسم بطابعها المهني والتقني والجمالي من جهة، وطابعها الرمزي والدلالي من جهة أخرى، كما تتميز أيضا بخاصيتها التربوية والديداكتيكية من جهة ثالثة، فهي وسيلة للتوضيح والشرح والتقويم. ويعتمد كتاب" منار اللغة العربية" على مجموعة من الصور الفوتوغرافية، نحدد منها الصورة الموجودة في الصفحة الخامسة والثلاثين:

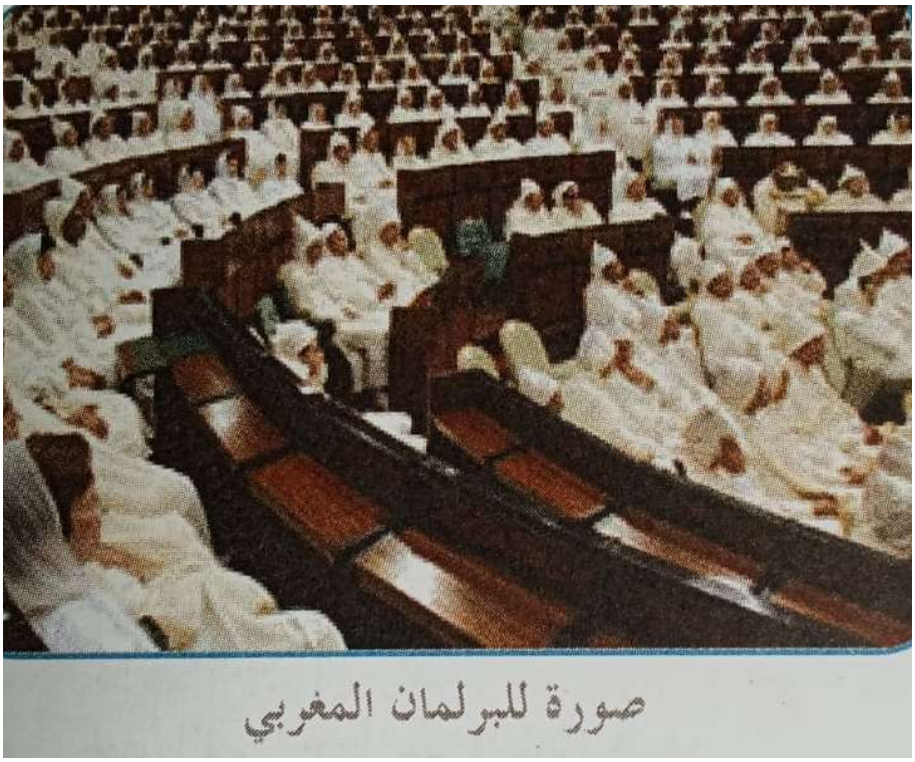

صورة للبرلمان المغربي

وهي صورة للبرلمان المغربي، تتكون من مجموعة من النساء والرجال بالزي المغربي التقليدي الأبيض، يجلسون بشكل موحد ومنظم، النساء بجانب الرجال، دليل على قيم المواطنة المغربية الحقة، المبنية على المساواة والتماسك، إضافة إلى تقبل الأخر والاعتراف به.

4- الصورة الرقمية: استفادت الكتب المدرسية مؤخرا من الصور الرقمية الجاهزة التي يمكن سحبها من الشبكة العنكبوتية، واستثمارها بمرونة ويسر، فهي صورة متطورة، سهلت – وبدقة عالية – عملية تأليف الكتب المدرسية، ونجد هذا النوع من الصور في الصفحة السبعين:

وهي صورة مأخوذة عن الموسوعة الحديثة، توضح أهمية ودور التكنولوجيا في حياة الإنسان، فهي الأداة الفعالة ل "دمقرطة" المعرفة، على أساس أنها تتيح المعلومات للجميع في كل وقت وفي أي مكان.

وهناك أنواع أخرى من الصور، كالصورة الإشهارية، والصورة المسرحية...وغيرها.

وتحقق الصورة التربوية في كتاب " منار اللغة العربية" مجموعة من الوظائف نحددها على الشكل الآتي:

1- وظيفة تأثيرية: تؤثر الصورة التربوية على المتعلم، فتجعله يقظا، منتبها معرفيا ووجدانيا، وكذا حسيا وحركيا.

2- وظيفة ديداكتيكية/ أداتية: تستعمل الصورة لأغراض تعليمية – تعلمية، ويتم بواسطتها شرح الدرس وتوضيحه وتفسيره.

3- وظيفة جمالية: تجعل الصورة المتعلم ينفتح على أفاق الجمال بكل ما يحمله هذا العلم أو الفن أو الفلسفة من قيم إنسانية عميقة بكل امتياز، فعاشق الجمال عاشق لكل فعل فني وثقافي، ممتلك لرؤية ذوقية جميلة.

4- وظيفة سيميائية: الصورة التربوية أيقونة، تحمل دلالات رمزية موحية.

5- وظيفة تعبيرية/ ثقافية: تكشف الصورة التربوية عن العديد من الأفكار والقضايا، تجعل المتعلم مدركا لمحيطه، مؤمنا بضرورة تبادل الأفكار والقيم والتجارب، كما تحمل في طياتها حمولات حضارية وثقافية متعددة تعبر عن وعي الإنسان، وتعكس مستوى ثقافته.

6- وظيفة حفاظية: تحافظ الصورة على التواصل بين المدرس والمتعلم، وتشجعه على التعلم الذاتي.

ثانيا– الصورة التربوية والقيم

إن بناء مجتمع المعرفة، المجتمع المتشبع بقيم القراءة والبحث عن المعرفة، بكل ما تنهض عليه هذه الأخيرة من مكونات فنية وثقافية وعلمية واجتماعية واقتصادية...لا يمكن أن يتحقق بمعزل عن الصورة، وما تولده هذه الأخيرة من أسئلة نقدية وجمالية.

ومع بداية الألفية الثالثة جددت وزارة التربية الوطنية المغربية كتبها التربوية ومناهجها الدراسية لمسايرة المستجدات على جميع المستويات والأصعدة، وكان الهدف من ذلك هو تحقيق الجودة الكمية والكيفية، وتأهيل الناشئة بطريقة كفائية للقدرة على الانخراط في الحياة العامة.

والجديد الذي ركزت عليه الوزارة في سياستها البيداغوجية الحالية هو التسلح بقيم حديثة وأخلاقيات جديدة فرضتها الساحة السياسية الدولية والسياقات الوطنية، بعد تنامي ظاهرة الإرهاب عاليما مع بداية الألفية الثالثة، واستخدام الدول ضد شعوبها المسحوقة سياسة العنف والقهر والبطش الدامي.

وإذا كانت كتب اللغة العربية (شعب الأدب) في التعليم الثانوي التأهيلي قد ركزت على القيم الجمالية والفنية، من خلال تذوق التلميذ للأدب العربي عبر عصوره الأدبية من العصر الجاهلي إلى عصرنا هذا، فإن الكتب المدرسية الموجهة للشعب العليمة بمختلف مسالكها تضم مجموعة من القيم إلى جانب الأدبية والفنية كقيمة الانفتاح على مستجدات العولمة، وتبني سياسة التنمية المستدامة بغية الرفع من التنمية البشرية، وقيم الجمال، والتضامن، والتسامح...بهدف تهذيب المتعلم أخلاقيا وتنويره علميا ومعرفيا وتقنيا، والرفع من مستواه الفني والجمالي والأدبي، وتزويده بمجموعة من القيم الأخلاقية الإيجابية الأصيلة، بعيدا عن كل مظاهر التعصب والتطرف، وإقصاء الآخر وتغريبه.

وينص كتاب " منار اللغة العربية" للسنة الأولى من سلك البكالوريا الموجه إلى تلاميذ الشعب العلمية والتقنية على اعتماد بيداغوجيا الكفايات في توزيع محتويات المنهاج وإرساء وحداته وتعزيز القدرات الذاتية للمتعلم، وتزويده بمجموعة من المهارات المعرفية والقيمية لمواجهة كل الوضعيات التي يمكن أن يواجهها المتعلم في المحيط الخارجي، وذلك من خلال التسلح بقيم التضامن والجمال والتعايش، ففي بداية الكتاب، نجده يؤكد على الاتجاه القيمي الأخلاقي من " تعزيز قيم الثقة بالنفس، وقيم التفتح واحترام الرأي الآخر، علاوة على تعزيز الإنتماء الوطني والثقافي والحضاري والإنساني، وتعزيز المواقف والميول الإيجابية، والعمل على تكوين حس نقدي في إطار التكوين الذاتي للشخصية، مع استثمار القيم الإنسانية والروحية والمثل العليا التي تعبر عنها الآثار الأدبية والفكرية."5

وقد أصبحت الصورة في مجتمعاتنا مصدرا لصناعة القيم والرموز وتشكيل الوعي والوجدان، والذوق والسلوك، وهكذا يتحقق المثل القائل: صورة واحدة تساوي ألف كلمة، وهناك من يقول: صورة واحدة تساوي مليون كلمة، فلكل صورة لغتها وخطابها.

والملاحظ أن كتاب " منار اللغة العربية " تناول مبحث القيم بشكل جلي وواضح، وهي قيمة " التضامن" وقيمة " التسامح" وقيمة " الجمال"، وكل قيمة ترافقها صورة أو صورتين، تثير انتباه التلميذ وتلفت نظره للنص، ومن خلالها يستطيع أن يفهم بشكل ما، بعض ما جاء في النص على وجه الإجمال، إن لم يكن على وجه التحديد، ومن هنا نجد تلك الوفرة في الصور التي تغطي كل صفحات كتاب " المنار".

وحضور الصورة عبر مختلف مضامين ومحتويات مجزوءة القيم في كتاب " المنار " من اللازم أن يساهم في تطوير قدرات المتعلم، ويجعله يكتسب مجموعة من الكفايات التي تساعده على الانفتاح حول ما يجري في محيطه المحلي والجهوي والوطني والعالمي، ففي محور " التضامن " نجد الصورة التالية:

توجد الصورة في الصفحة 128 ملحقة بنص شعري معنون ب "حبل الاجتماع" للشاعر معروف الروصافي، وتتكون الصورة من كرة أرضية يلتف حولها مجموعة من الأشخاص من مختلف الأجناس، وتبدو وجوه الأشخاص متعددة الأعراق، ومتعددة الأعمار، وكذا متعددة الأجناس: ذكورا وإناثا...وفيما يبدو روعي في الصورة التنوع العرقي والجغرافي، كما يغلب على الصورة اللون الأخضر، دلالة على أن اجتماع الناس مع بعضهم البعض وتآزرهم يساهم في تحقيق المنفعة العامة، ويحقق حياة آمنة رغدة هنية...فالتضامن قيمة إنسانية تربطنا بالآخرين بشكل مستمر، قال تعالى {إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}6، فالتعارف يقتضي التضامن والتعاون في مجالات الحياة.

وفي محور "قيمة التسامح" ساهمت الصورة المثبتة في أعلى الصفحة 136 في توضيح مفهوم التسامح، وضرورة التعايش مع الآخر والاعتراف به وباختلافه، فهي صورة تتكون من حمامة بيضاء تحمل في منقارها غصن زيتون، توجد في إطار دائري تتعدد فيه الألوان دلالة على خصوصية الآخر واختلافه، مع ضرورة تقبل هذا الاختلاف، أما الحمامة البيضاء وغصن الزيتون فهما رمز للسلام والتعايش بين الشعوب والجماعات، وذلك بنبذ التعصب والتطرف.

ووجود هذه الصورة في بداية " محور التسامح" يحتم على المدرس أن يوليها اهتماما بالغا، يجعله يعمل على تفكيك خطابها، الشيء الذي يلعب دورا بيداغوجيا مهما في حصر ذهن المتعلم في القيمة الإنسانية التي تعبر عنها الصورة. وقد عبر الشعراء عن ذلك بأسئلة إنكارية هدفها التحسيس، يقول محمد الحلوي:

يَا أخِي نحنُ في الحَيَاةِ على رغْـ ـمِ هَـوانَا وأنفِنا أخَوانِ

فعَلَامَ نعيشُ في هـذه الدُّنـ ـيَا ذئَابًا في صُورَةِ الإنْسانِ[7]

أما قيمة الجمال فهي إحساس داخلي يتولّد فينا عند رؤية أثر تتلاقى فيه عناصر متعددة ومتنوعة، ومختلفة باختلاف الأذواق.[8] وقد يكون ذلك في مشهد من مشاهد الطبيعة، أو في أثر فني من صنع الإنسان، أي كل ما يثير فينا الإحساس بدرجة التناغم والانسجام، يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

عشْ للجَمالِ تراهُ هَهُنا وهُنَا وعشْ لَهُ وهو سِرٌّ جدُّ مَكْنونِ[9]

وعندما نكون إزاء صورة فإننا نشعر أنها جميلة، ذلك لكونها تمكننا من الوصول إلى ألوان من الإشباع يحققها تأثير تلك الأشياء الجميلة تلقائيا، وهذا التأثير الممتع هو الإحساس بالجمال، كما تعمل الصورة على تربية الذوق الفني والجمالي للإنسان، فتجعله يدرك القيم الجمالية في الأشياء والظواهر الجميلة بالرؤية البصرية.

وفي القسم الخاص بقيمة " الجمال" من كتاب " منار اللغة العربية" نجد في الصفحة 147 صورة للفنان فان جوخ، تبين مظاهر الجمال في الطبيعة، بتحقيق مبدأي الانسجام والتناسق بين اللون الأخضر في مظاهر الطبيعة واللون الأزرق السمائي، وهي مظاهر تبدو خفية ومتنوعة، لدرجة كأنها مستعصية على الضبط والقياس. وقد أكد لنا علم الجمال ومنذ مدة أن المنبع الأساسي لما هو رائع في الفن إنما هو ما يكون رائعا في الحياة.

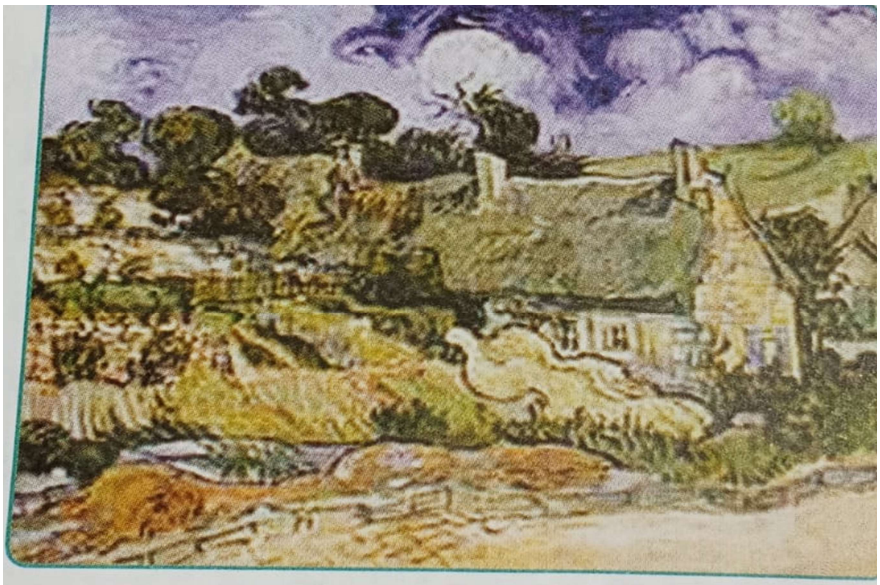

لوحة للفنان فان جوخ

147

وانطلاقا من هذه القيم يتضح أهمية الصورة في تطوير قدرات الإنسان، وجعله عاشقا لقيم الجمال والمحبة والسلام، رافضا لقيم العنف والتطرف، متمسكا بالحوار والتلاقح والتكامل الثقافي، سواء مع ذاته أو مع الآخر.

خاتمة

خلاصة القول يمكن للصورة التربوية أن تساهم في ترسيخ القيم الصحيحة، وتصويب تلك القيم المبنية على تصورات خاطئة، بالإضافة إلى المساهمة في توليد قيم جديدة وفق متطلبات العصر والمجتمع، وما يعرفه من تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية...وبهذا تكون الصورة أداة ثقافية وفنية وذوقية، لها قدرة فعالة في تطوير قدرات المتعلم.

وحتى نتمكن من جعل منظومتنا التربوية بمثابة صدى حقيقي لما ينهض عليه الميثاق الوطني للتربية والتكوين من أبعاد علمية وثقافية وروحية مرتبطة بالإنسان المغربي المتشبع بقيم التفتح واحترام الآخر، والمتشبث بالهوية الثقافية والحضارية مع الانفتاح على القيم الإنسانية...علينا أن نفسح المجال لتعليم وتعلم الصورة وفق رؤية إبداعية وثقافية وحوارية.

الهوامش:

1. سعيد بنكراد: السيميائيات (مفاهيمها وتطبيقاتها) سيميولوجيا الأنساق البصرية (الصورة نموذجا)، عن منشورات الزمن، سلسلة "شرفات" العدد 11، ص 89.
2. محمد بسيوني: أسس التربية الفنية، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1985، ص 298.
3. نفس المرجع، ص 237.
4. مصطفى الكفري: قضايا حول السكان والتنمية في الوطن العربي، دمشق 1993، ص 106.
5. كتاب منار اللغة العربية، منشورات وزارة التربية الوطنية المغربية، كتاب التلميذ، ص 4.
6. سورة الحجرات، الآية 13.
7. محمد الحلوي: أنغام وأصداء، دار السلمي، الدار البيضاء، ط1، 1965، ص10.
8. جبور عبدالنور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، 1984، ص85.
9. إيليا أبو ماضي: الخمائل، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1974، ص 37.